المحاضرة الثالثة عشر

جهود عبد المالك مرتاض النقدية

لقد سبقت الإشارة إلى أن الناقد عبد المالك مرتاض يمكن عده من أكثر وأغزر النقاد الجزائريين إنتاجا في مجال الدراسات النقدية، بالإضافة إلى عالم الابداع الذي أنجز فيه عددا من الأعمال. وقد تميزت أعماله النقدية بالتنوع، وتعدد المناهج ما يستدعي إمعان النظر فيها ومحاولة دراستها.

تجربته النقدية: مرت هذه التجربة بمراحل يمكن وصفها على النحو الآتي:

1-مرحلة التأسيس:

لقد أسهم عبد المالك مرتاض رفقة غيره من النقاد الجزائريين في إنشاء وتشكيل صرح نقدي، مع تلك الجهود التي بذلوها بعد تأطيرهم ضمن الجامعات العربية في فترة ما بعد الاستقلال، وقد غلب على توجههم النقدي المناهج السياقية عموما من منهج تاريخي ومقارن أو واقعي.

أما عن منجزات مرتاض فقد كان له أثر واضح من حيث التعامل مع المنهج التاريخي، كما في كتابه " فنون النثر الأدبي في الجزائر"، و "فن المقامات في الأدب العربي"، و"نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر"، وكتاب "القصة في الأدب العربي القديم". ورغم ما قدم من انتقادات لأعمال هذه المرحلة إلا أنه لا يمكن إغفال ما قدمته من منجزات هامة، منها التعريف بالنصوص الأدبية المختلفة بعد جمعها وتقديمها وهذا ما كانت تحتاجه وبقوة الثقافة العربية الجزائرية خاصة بعض النصوص المغمورة. وبعد دراسة هذه النصوص تشكلت نوع من المعرفة المتعلقة

بفنون أو شخصيات أو ظواهر أدبية لم تكن واضحة. وتدريجيا أدى تراكم هذه الأعمال إلى وعي نقدي ملموس بمختلف أشكال البحث المنهجية.

2-مرحلة التحديث:

بدأت هذه المرحلة منذ الثمانينيات، أو مع نهاية السبعينيات، مع بداية ظهور تصور جديد لمفهوم النقد، ورؤية مخالفة لطبيعة النصوص الأدبية، فأصبحت الطريقة السياقية في التعامل معها لا تجد نفعا، لأنها غير قادرة على فهم النص بالتغلغل داخل بنيته، وبالتالي الفشل في الوصول إلى مكامن جماليته، وتفسيره تفسيرا صحيحا.

في هذه المرحلة أعلن عبد المالك مرتاض عن ريادته في مغادرة المناهج السياقية و تبنيه للتصور البنيوي الذي يركز على النص ولا شيء غيره، ليخوض مرحلة تجريب جديدة أسفرت عن ميلاد عدد من الاعمال النقدية منها: "الألغاز الشعبية الجزائرية" ، "الأمثال الشعبية الجزائرية"، " النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟"، "الأمثال الزراعية"، "بنية الخطاب الشعري" وغيره من تجارب تمكن من خلالها مرتاض من غوض غمار تجربة متحولة جديدة أنتقل فيها التركيز من المبدع إلى النص ومن السباق إلى بنية النص، وقد أبرزت هذه المرحلة من نقده وفاءه للثقافة التراثية التي حاول بطريقته أن يجعلها تتعايش مع تقافته الغربية الجديدة كما نجده في دراسته لنص أبي حيان التوحيدي، الذي درسه دراسة تشريحية " غبر أنه لم بوفق توفيقا كاملا في اصطناع المنهج النيوي في هذه الدراسة، بل ظل مراوحا بين البنيوية والأسلوبية من منظور واحد، يتزاوج فيه المصطلحات الألسني والنحوي"، والواقع أن هذا التراوح قد بدى في غير هذا الكتاب كثيرا كما في الامثال الشعبية أو الألغاز

الشعبية الجزائرية، وفي كتابه"بنية الخطاب الشعري" حيث طيق المنهج البنيوي والأسلوبي دائما على قصيدة "أشجان يمانية"

هذا التراوح عرفته أعمال أخرى كثيرة لكن بين السيميائية والتفكيكية كما في كتابه: "أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد " وفي غيره من الدراسات، وبذلك تمكن هذا الناقد من أن يؤسس لنفسه منهجا مركبا من عدة مناهج ، لأنه يؤمن بأن النص لا بمكن إحاطته في بعض الأحيان بمنهج واحد لذلك فهو يأخذ بمحاسن المنهجين.

3-مرحلة إثبات الذات:

بعد تراكم الأعمال النقدية المنجزة لهذا الناقد تشكل نوع من الوعي والمعرفة الخاصة، نتيجة محاولة استيعاب دؤوبة للمناهج الغربية، لاسيما أن هذه العملية لازمتها معرفة تراثية عميقة وعدم تنكر لتلك الأصول والثقافة العربية، وهذا ما يبرز "استيعابه للمناهج الغربية استيعاب العارف الخبير الذي يجرب ثم يبدي رأي، فهو يرجع إلى التراث لمحاورته والتواصل معه لا لتغليبه على المعاصر أو التعصب له بل من أجل خلق رباط يزيد من تواشج العلاقة بين الماضي والحاضر"

كما أن هذا يبرز جانبا هاما في فكره وهو رفض التبعية المطلقة، أو محاولة تبنيها دون وعي أو إدراك وتجريب، هذا الوعي الذي لا يكتمل إلا بعد تحقق تفاعل متبادل بين النص والمناهج وخلفياتها المعرفية، ومع الواقع.

لقد تمكن هذا الناقد بالفعل من تشكيل مدرسة للنقد الجزائري الذي يستلهم من المناهج الغربية بعد انفتاحه المباشر على المدرسة الفرنسية، أنتجت لنا تراكمات نوعية وكمية كبيرة، وقد تأسست هذه المدرسة من خلال:

-الدعوة إلى التحرر من التبعية التقليدية، وخوض غمار تجربة التحديث

-تشكيل منهج نقدي خاص متكون من مجموعة من المناهج.

-محاورته المتواصلة للتراث من خلال مختلف أقطابه من مثل الجاحظ وابن قتيبة وابن سلام، والجرجاني وغيرهم

-ظهرت ملامح مدرسته من خلال جيل من النقاد الذين خاضوا غمار تجربته النقدية ومنهم حسبن خمري، عبد القادر فيدوح، عبد الله العشي، بوسف وغليسي، أحمد يوسف وآمنة بلعلي وغيرهم.

4-خصائص تجربته النقدية:

-ممارسة نقدية خصبة ومتنوعة من حيث التعامل مع النصوص المختلفة: قديمة أو معاصرة، شعبية أو فصيحة، شعرية أو نثرية، مما يدل على نظرة شمولية للنص الأدبي العربي دونما إقصاء لنوع من الأنواع، أو تهميش لشكل دون آخر، كما يدل على ثقافة أدبية واسعة ومتفتحة، لا تنزوي ضمن زاوية واحدة.

- ثقافة تراثية واسعة جسدت المعين الأول الخصب في فكر ولغة الناقد، ومنحته الثقة والجرأة التي يحتاجها الناقد الناجح، وقد غذى هذه الثقافة التراثية بالروافد النقدية الغربية، لاسيما أنه أخذ هذه الأخيرة من مصادرها الأصلية، دونما حاجة إلى ترجمة.

- تنوعت تجربته النقدية بين المنجزات النظرية الصرفة أو التطبيقية، وقد يلجأ إلى الإجراءين معا في بعض الدراسات.

- بعد أن أعلن عبد المالك مرتاض مغادرته لمرحلة النقد السياقي، خاض وبكل ثقة ودون تردد تجربة النقد النصانية بمختلف مناهجها انطلاقا من البنيوية، فالأسلوبية، والسيميائية، وصولا إلى التفكيكية.

– المقاربة النصانية عنده لا تقتصر على منهج واحد، فهو غالبا ما يمزج بين البنيوية والأسلوبية أو السيميائية والتفكيكية.

– تتميز تجربته النقدية بمحاولة التأصيل لمختلف المفاهيم والمصطلحات من التراث العربي، وهذا ما منح تجربته خصوصيتها من حيث محاولة الربط بين التراث العربي والغربي وتقليل الهوة الفارقة بينهما، على خلاف بعض التجارب النقدية المنغمسة في الثقافة والمناهج الغربية دون مراعاة لخصوصية النصوص العربية التي تطيق عليها.

– تجربته النقدية الواسعة أكسبته خبرة من حيث التعامل مع المصطلحات النقدية بحسب تصوراته وآرائه النقدية، ما سمح بتشكيل جهاز مصطلحي خاص به، من ذلك مثلا: السيميائيات، الحيز بدل المكان، التقويض بدل التفكيك، التشريح بدل التحليل...

مراجع الدرس:

–يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض.

–عبد المالك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية.

–عبد المالك مرتاض، الامثال الشعبية الجزائرية.

–يوسف وغليسي، النقد الجزائري من اللانسونية إلى الالسنية.

–عمار بن زايد، النقد الادبي الجزائري الحديث.